الأنثروبولوجيا بين عفوية الممارسة والتأسيس العلمي.

Anthropology between Spontaneous practice and scientific establishment

أ.النوري الأديب، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ـ تونس.

ملخص: حاولنا في هذا المقال الاشتغال على الحقل الأنثروبولوجي وتقديم صورة عامّة للمشهد في كتب الرّحالة المبكرين لفحص السجل التاريخي للحقل وإبراز قيمة بواكير الرحالات العربية لهذا الحقل العلمي. فسعينا إلى الى رصد أهم الرّحلات التي ساهمت في تأسيسه الأكاديمي وتتبّع التقويم التاريخي للأنثروبولوجيا وبروز المصطلح في القرن التاسع عشر. وسنركز على أهم تعريفاته، وأشهر مدارسه: التطورية والانتشارية والوظيفية والبنيوية واتجاهاته الثّقافية والشّخصية)، ثم نعالج أهم أقسامه وفروعه: الأنثروبولوجيا العضوية والأنثروبولوجيا الثّقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الرّحالات العربية والأنثروبولوجيا، والتطورية، والانتشارية والوظيفية والبنيوية والثقافة والشخصية وفروعها (الطبيعية والعضوية والأنثروبولوجيا الثّقافية والاجتماعية).

Abstract: We tried in this article to work on the field of anthropology and to introduce a general view in the books of early travelers. We sought to examine the historical record of the field and to highlight the value of early Arab journeys to this scientific field.We dealt with the most important journeys which caused its academic establishment and its history until the emergence of the concept of anthropology in the 19th century. We will focus on its important definitions and famous schools: evolutionary, propagative, functional, structural and its cultural and personal trends. Then we will treat its important sections and branches: Organic anthropology, Cultural Anthropology and Social anthropology.

Key words: Arab journeys, Anthropology, evolutionary, propagative, functional, structural cultural and personal, and its branches (natural, organic, cultural and social Anthropology).

مقدمة:

إنّ التعامل مع الفكر الأنثروبولوجي يمكن أن يكون من وجهات متعددة، وبما أنّه جزء مكوّن لجملة العلوم الاجتماعيّة، فقد صار محلّ تساؤل عن المستويات النظرية والمنهجية بين مختلف المدارس المتخصّصة في هذا المجال.

إنّ دراسة كيفيّة نشوء هذا الاختصاص لا يمكن أن تكون متكاملة إلاّ من زاوية النظريات التي اشتغل عليها العلماء والمؤرخون. الذين اعتبروا الأنثروبولوجيا أحدث العلوم الاجتماعية على الاطلاق. ويعتبر منتصف القرن التّاسع عشر نقطة تحوّل مهمّة في تاريخ ميلاد الاختصاص، ويمكن أن نميز في تلك الفترة بين ما نسميه ما قبل الاختصاص والنشأة التي وقعت قبل هذا التاريخ، فقد كانت هنالك معارف سوسيولوجية حول جملة من العادات والتقاليد السائدة لدى الحضارات والشّعوب.

لقد وجدنا في كتابات الرّحالة العرب معلومات وصفيّة عن عدد من الشّعوب، فدرسنا معارفهم وتقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السُّلالية وأوجه الحياة اليوميّة عندهم (فهيم حسين، 1986)، ولكن لا تزال الرّحلات العربية تجذب اهتمام دارسي الأدب أكثر مما تجذب دارسي الأنثروبولوجيا، بحكم أن الأنثروبولوجيا تشكلت كاختصاصٍ علميٍ محكومٍ بمعايير المرْكزة الأوروبية. ولما كان الغرض الأساسي لهذه الدراسة إبراز العلاقة بين الأنثروبولوجيا كما نراها اليوم والرّحلات باعتبارها مجال رؤية الآخر، فإننا نتناولها باعتبارها من بواكير التفكير الأنثروبولوجي. ومن خلالها نطرح إشكالا تتفرّع عنه عدّة تساؤلات هي كالتّالي:

كيف تظهر اسهامات الرّحالة العرب في تشكل البدايات الأولى للدراسات الأنثروبولوجية؟

ما معنى الأنثروبولوجيا؟ ما مدار اهتماماتها؟ وماهي اتجاهاتها الأساسية؟ وماهي أهم فروعها؟ وماهي السمات النظرية والمنهجية لكل مدرسة من المدارس الأنثروبولوجية.؟

سنقوم أوّلا بتعريف إسهامات الرّحالة العرب وتحليلها في الأنثروبولوجيا، وبتحليل اللّحظة التأسيسية وظهور المصطلح ثانيا، وثالثا ببيان اتجاهاتها الأساسية عرضا وتحليلا، وهي الاتجاه التطوري والاتجاه الانتشاري والاتجاه الوظيفي والاتجاه البنيوي واتجاه الثّقافة والشّخصيّة. ونتناول رابعا، فروع الأنثروبولوجيا، المتمثلة في فرع الأنثروبولوجيا الطبيعية أو العضوية، وفرع الحفريات البشرية وفرع الأجناس البشرية، والأنثروبولوجيا الثّقافية وعلم اللّغويات واللّسانيات، وعلم أصول اللّغات وعلم الأثار القديمة وعلم الثّقافات المقارن (الإتنولوجيا)، والأنثروبولوجيا الاجتماعية.

أوّلا- إسهامات الرحالة العرب في تأسيس الأنثروبولوجيا:

إنّ الرّحلات إلى البلاد الأجنبية ظاهرة حضارية تاريخية تميّز بها العالم الإسلامي منذ أن انتصب الإسلام في الأراضي العربية دينا وحضارة. ولقد تقاطع في هذه الرّحالات كلّ من الغرض الجغرافي الوصفي بالغرض التأريخي، فكان الرّحالة عموما يجتهد في معرفة تاريخ العالم الأجنبي والأجناس الموجودة فيه. كما لاحظنا في نصوص الرّحالة العرب الوصف المونوجرافي المفصل للعادات والتقاليد والمؤسّسات الاجتماعية، وهو وصف متولد عن المعايشة والملاحظة والمعاينة التي يمكن اعتبارها أدوات التجربة الحقلية للأناسة اليوم، ومن بينهم نذكر:

أبو الحسن علي المسعودي: (896 م-957م)، قام برحلة إلى فارس والهند وسيلان ودول بحر قزوين والسودان وجنوب شبة الجزيرة العربية وبلاد الشام وبلاد الروم. له إسهامات أنثروبولوجية يحتوي على معلومات عن شعوب المناطق التي زارها، فذكر أجناسهم وصفاتهم الجسمية والشّخصية وعاداتهم وتقاليدهم والحِرف والمأكل والملبس وأوضاعهم السكانية والاقتصادية والاجتماعية ومستوى التحضر لديهم عن طريق دراسة الأحوال العمرانية والسّياسية(المسعودي أبو الحسن، 2005).

أبو عبد الله بن محمد البكرى: (1030 م – 1094 م)، من أشهر كُتبه "المسالك والممالك" (البكري أبو عبد الله بن محمد،1992)، وقد تكوّن من عدة مجلّدات شملت أرجاء العالم الإسلامي، وتضمنت معلومات عن بلاد كانت مغمورة لقلة المعلومات عنها آنذاك، كبلاد المغرب والسودان (أفريقيا جنوب الصحراء) وقد خصّص له جزءاً خاصاً باسم " تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان". كما تطرق إلى التّراث الشّعبي الموروث لعدد من الشّعوب في أرجاء العالم المعروف آنذاك، ووصف العادات والتقاليد الغريبة، وقدم صورة دقيقة لطرق التجارة في الصحراء الكبرى بأفريقيا.

أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي: وهو من رحالة القرن الرّابع الهجرى (العاشر الميلادى). تكمن أهمية رحلاته في أنحاء العالم الإسلامي في المعاينة، وجمع المادة العلمية التي سجلها في كتابه الشهير "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم". يقول في مقدمة مؤلفه « نحن لم نبق إقليماً إلا وقد دخلناه وأقلّ سبب إلا وقد عرفناه، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره. وما بقيت خزانة تلك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ولا مذكرو بلد وقد شهدتهم (المقدسى أبو عبد الله محمد بن أحمد، 1906، ص260)، وتجدر الإشارة إلى أنّ المقدسى قد وصف خصائص كل إقليم، وبيّن أهمّ سمات المناخ والمذاهب الدينية واللّغات والقبائل ومصادر الثروة والأسواق. وقد اعتمد في كتابه على الملاحظة والمشاهدة الميدانية، وقد استطاع تحديد المعالم الاجتماعية لكل قسم سواء أكان ذلك في الأزياء أو العملات أو العادات، كما درس النظم الاجتماعية والقرابة والايكلوجيا (علاقة الإنسان بالبيئة)، وقد اعتمد المقدسي من الناحية المنهجية على المعاينة ثمّ الوصف والتحليل.

أبو عبد الله محمد الإدريسي: (1099م– 1165م)، قام بعدة رحلات إلى إفريقيا، والحجاز ومصر والقسطنطينية وآسيا الصغرى. أشهر كتبه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، عدّد أجناس السكان وعادات الناس من حيث الملبس والمأكل والتقاليد الاجتماعية(الإدريسي أبو عبد الله، محمد،2002)، ولاحظنا أنه أسهب في عرض تفاصيل حول المناطق التي زارها، وقد كان يستخدم أحياناً عبارات مثل "وقد شاهدت" أو "وقد رأيناه عيانا"، واستنتجنا أنّه اتبع مراحل عدّة في جمع مادته العلمية بطرقٍ مختلفة هي: القراءة والمعاينة الشخصية والمقابلة والاستكشاف وكتابة التقارير. وتعتبر المقابلة مصدراً مهماً من مصادر البحث، لذا كان الإدريسي يعتمد أساسا الأسلوب الوصفي(الإدريسي، 2002، ص7)، وفي مقدمة كتابه أثبت أنّ المقابلة مصدراً من مصادره. يقول « فلم يجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلاً، بل وجده فيها مغفلاً، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه، وأخذ معهم فيه، فلم يجد عنهم علماً أكثر مما في الكتب المذكورة، فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده، فأحضر العارفين بها، المتجولين فيها، فسألهم عنها بواسطة جمعاً وأفراداً فما اتفق فيه قولهم وصحّ في جمعه نقلهم أثبته وأبقاه، وما اختلفوا فيه ألغاه وأرجاه.»(الإدريسي، 2002، ص6).

ابن جبير محمد بن أحمد الأندلسي: (1145م- 1217م) يُعد من أبرز الرّحالة العرب الذين اعتمدوا الصرامة العلمية في تسجيل أخبار رحلاتهم، وقد وصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسّياسية للمناطق التي قام بزيارتها وصفاً دقيقاً، ويعد مؤلفه الموسوم " تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار" من أهم المؤلفات في الرّحلات، إذ صوّر الحياة بكل تجلياتها في القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع الهجري في المشرق والمغرب، وسجّل ما شاهده. واهتم بذكر التاريخ الذي زار فيه كل مدينة أو مكان، كما ذكر المسافات التي تفصل بين تلك الأماكن، وقدم معلومات وافية عن الآثار والمساجد والدواوين والمدارس وغيرها من المعالم

المدنية والحضارية التي درس أحوالها، كما وصف لنا غرائب المشاهد وبدائع الصنائع والأحوال الاجتماعية والسّياسية، وتذكر بعض المصادر أنّ ابن جبير لم يدوّن رحلته في شكل كتاب، بل جعلها أوراقاً منفصلة مكتوبة بشكل مذكرات يومية تمّ جمعها ونشرها وعرفت فيما بعد "رحلة ابن جبير"(ابن جبير محمد بن أحمد الأندلسي، 2008).

أبو عبد الله بن محمد التيجاني:(1277-1272 م) صاحب أقدم رحلة في بلاد أفريقيا. تضمن مؤلفه تقييد الرّحلة" الذي عرف "بالرحلة التيجانية" (التيجاني أبو عبد الله بن محمد، 2005، ص36) معلومات وافية عن البلاد الأفريقية في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن هجريا، ووصف وصفا شاملا مُدنها وربوعها وعرّف بعمرانها وسكانها وقبائلها وأحوالها كافة، وقد حرص فيه على عرض أخبار المدائن والقرى، وأصل من يسكنها، وما يتفرع عن كل قبيلة من بطون وأفخاذ من البدو الرّحل. فميّز بين أصولها وفروعها، وعني بالتحدث عن العلماء والفقهاء الذين التقى بهم في رحلته، فلم يكتف بترجمة حياتهم وذكر مصنفاتهم، بل حرص على حضور دروسهم ومشاركتهم مجالسهم والاستماع اليهم، ووصف بعمق حلقات أهل الحديث وأئمة الفقه في زمانه ذاكرا أسانيدهم وطرائق رواياتهم، واهتمّ بذكر أنباء رحلته في البلاد التونسية واللّيبية فكان تدوينه زاخر بالفوائد الجغرافية، ومفعم بالأخبار التاريخية والأدبية والاجتماعية. كما وصفٍ المدن التي مرّ بها في طريق رحلته وصفا قلّ نظيره في سجل الرّحالة.

يقول حسن حسني عبد الوهاب عن هذه الرّحلة إنّها« من غرر المصنفات التونسية، وكأنها الوحيدة من نوعها في وصف البلاد الإفريقية والتعريف بعمرانها في أوائل القرن الثّامن للهجرة، أحد العصور الغامضة في تاريخ تونس الاجتماعي والسّياسي من حيث عناصر السكان وهيئتهم الاجتماعية والاقتصادية علاوة على تفصيل جغرافية القطر وتاريخه وتراجم مشاهير أبنائه مع التعرض للنباتات الخاصّة بكل جهة من جهاته، وهو مقدار من الإفادات قلّما اجتمع في رحلة واحدة، لندرة النّصوص الواصلة إلينا عنه»(التيجاني أبو عبد الله بن محمد، 2005، ص35).

ابن بطوطة محمد بن عبد الله: (1304م- 1378م)، عاش في القرن الثّامن هجريا (الرّابع عشر ميلادي). وكان لتدوينات رحلته خصائص أنثروبولوجية، تتجلى في وصفه للناس، وحياتهم اليومية، وسلوكاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وقيمهم. وبيان تنوع الشّعوب واختلاف تقاليد الأقوام وعاداتهم وامتداد بقاعهم(ابن بطوطة أبو عبد الله، 1968)، كلّ ذلك مثل مادّة خصبة في المنهج الأنثروبولوجي لدراسة الشّعوب.

وكان لما أورده عن الهند بصفة خاصّة أهمية اثنوجرافية وجغرافية، تتمثل في كشفه عن عناصر الالتقاء بين الحضارتين الإسلامية والهندية. وكانت معلومات ابن بطوطة تتصف بالصرامة المنهجية. فعلى سبيل المثال فقد أوخذ على مبالغته في ذكر مشاهداته بجهات أفريقيا التي كانت مجهولة، ولكن اتضح فيما بعد بأن وصفه للظواهر الجغرافية التي شاهدها من الدقة ما يدعوا إلى الإعجاب.

ابن خلدون عبد الرّحمان بن محمد: (1332م – 1406م) حظيت أعماله باهتمام كبير في الدّراسات الأنثروبولوجية، وخاصّة المفاهيم التي اعتمد عليها مثل العصبية، وقوانين العمران...كما تنبّه الدّارسون لكتابه إلى اهتمامه بدور العوامل الاقتصادية وعلاقات الإنتاج وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها في فهم المجتمع القبلي، وتناول حال الشّعوب وتقاليدها وعقائدها ووصف أحوال المجتمعات، لذلك كان مفهوم العمران البشري عنده يشمل كلّ الظواهر سواء أكانت سكانية أو ديمغرافية، أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية أو ثقافية. وقد اعتبر البيئة أهم العوامل المتحكّمة في تفكير الشّعوب الناشئة وثقافتها وميولاتها السلوكية(ابن خلدون، 1966).

ومن هنا يمكن القول إنّ مفهوم العصبية القبلية تشكل في سياقات حياة القبائل البدوية المتأثرة بالعوامل الأيكولوجية والاقتصادية ومقارنتها بمثيلاتها اليونان والفرس. وقد تمخضت هذه الدراسة عن حقائق وقواعد ونظريات مهمّة في مجال "الأنثروبولوجيا" لأنّها قدمت مفاهيم اثنوجرافية واثنولوجية، وحلّلت الأبنية الاجتماعية والأنظمة المختلفة(الدينية والقضائية والأسرية والطبقية وغيرها.) والأنماط الثّقافية المتعدّدة. وقد اهتمت مؤلفات هؤلاء الرّحالة بشؤون العمران، واعتمدت أساسا على المشاهدة والخبرة الشّخصية، الأمر الذي جعلها مادة خصبة للمنهج الأنثروبولوجي، وهذا يقودنا إلى الإقرار بوجود تراث مشترك من الوصفيات بين ثقافات متعدّدة مكّن من تطوير الاثنوجرافيا إلى خطاب علمي.

وبشكل عام درس الرّحالة العرب المجتمعات ضمن الإطار الثّقافي والاجتماعي، فلم يهتموا بالإنسان الفرد، وإنما اهتموا بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس، وفي أحداثهم وأفعالهم الحياتية. لذلك هم يُعتبرون من الروّاد الأوائل للتفكير الأنثروبولوجي كما نراه اليوم. وكان المنهج المعتمد في هذه الرّحالات هو المشاهدة والتجربة الشّخصية، والرّواية الشفوية وهذا ما ميزها وجعلها مادّة خصبة ومفيدة من الناحية الأنثروبولوجية أي من جهة دراسة الشّعوب والمجتمعات والثّقافات الإنسانية (تدوينا وتوثيقا).

إنّ عرضنا السريع لمساهمات بعض الرّحالة العرب في ميلاد الفكر الأنثروبولوجي يكشف لنا أنّها لم تكن حازمة جازمة في مناهجها ولم تتم وفق قواعد علمية صرفة وبأدوات منهجية وابستمولوجية واضحة (مقارنة بزمانها) ورغم القيمة الوثائقية لهذه الرّحالات فإنّها لم تكن على درجة كبيرة من الأمانة والموضوعية، فالصورة المعروضة تتداخل فيها الذّات بالموضوع، أي تمتزج فيها رؤيتان للعالم: رؤية الرّحالة المشاهد الباثّ ورؤية المشاهد الإنسان الأجنبي الموصوف ومحيطه الطبيعي. وقد امتزج وصف العالم بالمواقف ويعزى ذلك إلى سيطرة التفكير المرجعي والحكم على الآخر من خلال منظور الثّقافة والحضارة الإسلاميين. ولكنّها بينت لنا ريادة الثقافة العربية في التمهيد لهذا العلم.

ثانيا- اللّحظة التأسيسية وظهور المصطلح:

إنّ كلمة "أنثروبولوجيا" من الناحية الاشتقاقية مشتقة من الكلمة الإغريقية(Anthropo)، أي الإنسان، والكلمة(Logy) أي العلم، فالكلمة في معناها اللّغوي هي دراسة الإنسان(www.aaanet.org).ونتيجة لتنوع الأنشطة التي يقوم بها الإنسان، تبنى الأنثروبولوجيون التعريف اللّغوي لعلمهم، ولذلك حاولوا دراسة الإنسان في كلّ أعماله، أي كل منجزاته المادية والفكرية، وباختصار الدراسة الشاملة للإنسان.

إنّ محاولة إيجاد تعريف للأنثروبولوجيا يخضع لجملة من المقاربات، نظرا لاختلاف تعريفاتها من مجال ثقافي الى آخر. ففي الولايات المتحدة الأمريكية يستخدم مصطلح الأنثروبولوجيا الجسمية للدلالة على دراسة الجانب العضوي للإنسان بينما يستخدم مصطلح الأنثروبولوجيا الثّقافية، للإشارة الى مجموع التخصّصات التي تدرس السمات الاجتماعية والثّقافية لحياة الإنسان، ويدخل في ذلك الدراسات التي تهتمّ بإنسان ما قبل التاريخ ويشار إليها بعلم الأركيولوجيا(Archéologies). في حين أنّ ما يصطلح على تسميته الأنثروبولوجيا الثّقافية في المجال الثّقافي الأمريكي، يدرجه الفرنسيون تحت تسمية الأثنولوجيا، « التي تهتمّ بوصف طرائق الحياة ومجموع العادات والتقاليد والقيم والأدوات والفنون لدى جماعة معينة، وخلال فترة زمنيّة محدّدة، ويعتبرونها جزء من علم الاجتماع»(Jean Poirier,1974,P128)، أمّا في الأوساط الثّقافية الأنقلوساكسونية، فإن المصطلح الأكثر رواجا هو الأنثروبولوجيا الاجتماعية، التي تقصر اهتمامها على النظم الاجتماعية كالعائلة ونسق القرابة والتنظيم السّياسي والاجراءات القانونية والعبادات الدينية. وهذا ما يساعد على وضع نماذج نظرية تفسّر بنيتها ووظائفها ودورها في

استمرارية الحياة الاجتماعية وتماسكها وما انتج بدوره تخصصات فرعية مثل أنثروبولوجيا القرابة والدين. وبيّن ذلك (إدوارد إيفانز بريتشارد (E Evans –Pritchard 1902-1973) أحد الرّواد الأوائل للأنثروبولوجيا الاجتماعية، قائلا إنّها« تدرس السلوك الاجتماعي، الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، ونسق القرابة، والتنظيم السّياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية، وغيرها. كما تدرس العلاقة بين هذه النظم، سواء في المجتمعات المعاصرة أو المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات(برتشارد إيفا نز ادوارد، 1975، ص23).

وبغضّ النظر عن الفروقات الحاصلة في تعريف الأنثروبولوجيا، وتنوع المقاربات النظرية والمنهجية، يمكننا ايجاد تعريف مشترك يحاول الجمع بينها، تُؤكد على أن الأنثروبولوجيا تعني في المعنى الأمريكي أو الفرنسي أو الانجليزي دراسة الإنسان وحياته الاجتماعية وخصائصه الجسمية وبعض منتجاته المادية والتكنولوجية وأنظمته الاجتماعية وأفكاره ومعتقداته.أي دراسة المجموعات الإنسانية منظور اليها في كليتها، وفي خصائصها وفي علاقتها بالطبيعة.

ثالثا- الاتجاهات الأساسية في الأنثروبولوجيا:

رغم عُسر تحديد اتجاهات الأنثروبولوجيا لتنوع واختلاف مجالاتها وللخلفية المعرفية للدّراسات والبحوث، حاولنا حصر أهمّها في ما يلي:

1-3 الاتجاه التطوري: تؤكدّ كتب التّاريخ لعلم الأناسة، على أنّ المدرسة التطورية هي أولى مدارس هذا العلم لأنّها وفرت ما كان معتمدا من أسس نظرية ومنهجية واضحة، بالإضافة إلى منظور تحليلي خاصّ انبنى على مقولة التطور، فالمدرسة التطورية، لها جملة من المقولات التحليليّة، تمحورت حول نظرة تاريخيّة للمجتمعات تحاول من خلالها أن ترسم خطا عاما لانتقال المجتمع من مرحلة تاريخية إلي أخرى. فهي ترى أنّ المجتمعات الإنسانية تتطوّر في بُناها وخبراتها، ومعتقداتها أيضا، وهذا التطور ينزع دائما نحو الأشكال الاجتماعية الأكثر تعقيدا للوجود، والمثال على ذلك الانتقال من المرحلة الهمجيّة إلى المرحلة البربريّة، والمرحلة الحضاريّة. (Richard Roger,1985). فالمرحلة الهمجيّة، تقوم على الزّراعة والصيد. في حين أنّ الشكل الأساسي في المرحلة البربريّة، يرتكز على الزراعة وتربية الماشية. يوافق هذه الأشكال في تحصيل القوت نظاما سياسيا يتطور من مرحلة إلى أخرى، ففي المراحل الأوّلى لم تكن هنالك زعامات إلاّ ما اعتمد على نفوذ محلّي محدود، ولكننا وبداية من أواسط المرحلة البربريّة نجد زعامات حربيّة تعتمد النفوذ في الجيوش المنظّمة التي تدافع عن مصالح الأقوام أو الشّعوب أو القبائل المتحالفة. هذه الزعامات الحربيّة تتطور لتولّد أنواعا أخرى من رئاسات جماعية فيها مزج بين المدني والعسكري، وفيها أيضا تعقيد وتركيب يؤديان إلى ظهور الدولة في مرحلة الحضارة. هذا التطور لا يمس فقط أشكال تحصيل القوت أو أشكال التنظيم السّياسي، بل يشمل أيضا المعتقدات السحرية الدينيّة، مثل عبادة كائنات طبيعية وتقديسها وهي عبادات مباشرة لما هو مادي ومحسوس. وتوجد عبادات أخرى توصف عادة بأنّها إحيائية، كأن نعبد مثلا جدّا مؤسّسا للقبيلة.

المرحلة الموالية هي نشأة الديانات، التي تقوم على عبادة آلهة من قبيل المكونات الفلكية للعالم، وهي مرحلة تيسّر الوصول إلى عبادة آلهة غير مرئيّة. يعتمد التطوريون إذن في محاولة إعادة كتابة تاريخ المجتمعات على نظريات من قبيل" الترسّب" التي تفصل بين عصرين ونظامين اجتماعيين، باعتباره شكل من الانتظام الاجتماعي، في حين تحافظ اللّغة على تسميات ما كان يدّل على تلك المرحلة (مثال الأب والعم والخال)، وقد وردت أغلب هذه التقسيمات التطورية في كتابات (لويس مرغان: 1881–1818 Morgan) الذي كتب كتابا موسوما "بالأنظمة والقرابة الدموية"، وكتابا آخر وُسِم" بالمجتمع القديم" سنة 1871. كما يمكن أن نذكر من بين التطوريين

(جيمس فرايزر: James Frazer 1854-1955) مؤلف "الغصن الذهبي"(فرايزر جيمس، 1971).

لقد ركّزت التطورية من الناحية المنهجية على الإقامة المطولة في الوسط المدروس مع التدقيق في الوصف والتحليل المقارن للثقافات، وتركز حول ما يعرف تاريخيا باسم التطورية الثّقافية التي اهتمت بالبحث عن الأصول التاريخية للسمات الثّقافية. لقد ساد الاعتقاد أنّ الثّقافة هي نتاج تراكم النشاط الإنساني عبر الزمن وأن التقدم هو الغاية الأساسية من التطور الإنساني. ويرى التطوريون أن المجتمعات تتغير كلّها وفق قانون ثابت يقوم على فكرة التطور من مرحلة دنيا إلى أخرى أرقى كما هو مجسد في الحضارة الأوروبية.

3-2 الاتجاه الانتشاري: إذا كانت المدرسة التطورية تُدرج ضمن التصور التّاريخي للأناسة، فإنّ المدرسة الانتشاريّة تُدرج ضمن التصور الجغرافي، فلقد انطلقت هذه المدرسة من البحوث الاثنوجرافية التي كان ينجزها الجغرافيون النمساويون، وتمكّن "فرانس بواس:(Franz Boas 1858 -1942) من تطوير تلك البحوث الاثنوجرافية في اتجاه تحليلي، وذلك باستغلال أفكار(ويليام سميثWilliam Smith) في مقال انتقد فيه المدرسة التطوريّة في مؤلّفه الموسوم "بحدود المنهج المقارن في الأناسة" الصادر في طبعته الأولى سنة 1896، لقد حاول أن يبيّن أنّ ما يلاحظ من تطورات لا يرتبط بالضرورة بعامل التطور، وأن الاتصال بين الشعوب المختلفة هو الذي ولد ضربا من الاحتكاك الثقافي نتج عنه انتشار لبعض السمات الحضارية أو كلّها. هذا ما يفسر واقع التباين الحضاري للشّعوب من جهة ويعلن رفضا لحتمية التطور الخطّي لكلّ المجتمعات وفق قانون ثابت من جهة ثانية، فلا يمكن أن نعيد رسم ماضي كلّ المجتمعات على أساس هذا الخطّ التاريخي. وبناء على ذلك فإنّ ما يقدّمه التطوريون، ليس إلاّ افتراضات لا أدلّة تاريخيّة عليها، فضلا عن كونها لا تبحث في المجتمعات المعنيّة، انطلاقا ممّا تلمسه من خصوصياتها الثّقافية.

لقد حافظت الانتشارية على الأساس المنهجي، وهو الإقامة في الوسط المدروس، مثلما حافظت على مقولة التطور، ولكنّها سعت إلى الاهتمام أكثر بالثّقافة والفن واللّغة.

إنّ الأساس التحليلي في الانتشارية هو مقولة الانتشار، بمعنى انتقال عناصر ثقافية مثل الأسطورة، أو الأشكال الفنية، أو المعتقدات، من ثقافة إلى أخرى في نطاق ما تسميه المدى الجغرافي للانتشار، وانطلاقا من مثال الأسطورة، وانتقالها من قبيلة إلى أخرى، يحدّد الانتشاريون المدى الجغرافي الذي تنتقل فيه هذه العناصر، سواء أكان ذلك عن طريق الهجرة أو الغزوات، أو على هامش التبادل الاقتصادي، وهو ما ينجر عنه تبنّي لبعض هذه السمات الثّقافية. ويمكن أن يكون ذلك عن طريق الاقتراض، أو عن طريق التركيب، كما يمكن أن يكون بالاعتماد على التقليد مع إعادة توظيف وتغيير، نستنتج ممّا تقدّم، أنّ ما تأسست عليه التطورية يمثل من وجهة ما، مقابلا لما تأسست عليه الانتشارية، وخاصّة في مستوى المنظور التحليلي. ولكن من أهم تبعات هذا الاتجاه النظر إلى الثّقافات الإنسانية باعتبارها كيانات مستقلة من حيث النشأة والتطور ومن حيث السمات الرئيسية التي تميزها عن غيرها. وهكذا يرجع إلى هذا الاتجاه الفضل في إقرار فكرة تعدّد الثّقافات وتنوعها، والقول بالنّسبية الثّقافية التي ستصبح مفهوما مركزيا في الفكر الأنثروبولوجي. وأساسه الدعوة إلى قبول الاختلاف الذي سيحقق فهما أفضل للهوية الإنسانية.

3-3 الاتجاه الوظيفي: ترتبط الوظيفية بالتراث العلمي الاجتماعي كما أسّسه (ايميل دوركايم: Emile Durkheim 1858 -1917)، وهو اتجاه يستند إلى ضرب من المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكائنات البشرية، إذ تُعد الثقافة بمثابة كيان كليّ وظيفي يماثل الكائن الحي، بحيث لا

يمكن فهم الدور أو وظيفة أي عضو من أعضائه إلاّ في ضوء علاقته بباقي أعضاء الجسم وبالتّالي يمكن دراسة الدور أو الوظيفة اتي يؤديها كل عنصر ثقافي. والأساس النّظري لهذا الاتجاه هو استبعاد المنظور التاريخي التطوري من جهة والمنظور الجغرافي الانتشاري من جهة أخرى.

إنّ نقطة التركيز الأساسية لهذا الاتجاه هي دراسة الثقافات في واقعها وزمانها الحالي، لذلك رفض الوظيفيون المنهج التاريخي الذي لا يضمن في نظرهم علمية دراسة الثّقافات الإنسانية. وهكذا تمثل الوظيفية نوعا من التحول في النموذج التّحليلي على أساس أنّ التمشي النظري في التحليل الوظيفي في الأناسة هو اعتبار أنّ السلوك الإنساني استجابة لحوافز الأفراد، بمعنى أن كل سلوك يفهم داخل النسق.

إنّ العناصر الثّقافية التي تنشأ عن ذلك السلوك تترابط في أنساق تتحدّد بحسب وظيفتها في اشتغال ذلك النسق، ولذلك يمكن القول إنّ الاتجاه الوظيفي يعتبر المجتمع جملة من الأنساق تحوي داخلها مؤسّسات اجتماعية مترابطة، أداتيا وغائيا.

من الناحية المنهجية، ركّزت الوظيفية على دراسة مؤسّسات المجتمع، في الواقع الاجتماعي، وذلك بالتركيز على الإقامة في الوسط المدروس والامتناع عن المقارنة، والعودة للتاريخ كما يفعل الاتجاه التطوري.

إنّ الباحث الذي يتبنّى الاتجاه الوظيفي يتناسى ثقافته وينقطع عن مجتمعه الأصلي، ليندمج كلّيا في المجتمع المدروس، على غرار (مالينوفسكي: 1942- 1854 Malinowski) الذي يعتبر من مؤسّسي الأناسة الاجتماعية البريطانية، التي ركّزت على الدراسة العينيّة للمؤسّسات الاجتماعية في بدايتها. فعالج في أطروحته لنيل الدكتوراه العائلة عند سكّان أستراليا الأصليين سنة 1916. وله أيضا دراستان عنوان الأولى "الجريمة والعرف في المجتمع الهمجي" وعنوان الثّانية "الحياة الجنسية في شمال غربي ماليزيا" ودرس فيها أنظمة القرابة (أمومية النسب). وقد بيّن أنّ الحياة الجنسيّة تعتمد على معايير تحرّم نوعا من العلاقات وتحلّل نوعا آخر. ولاحظ "ماليونفسكي" أنّ التصرف في التحريم والقمع المسلط على الحياة الجنسية يختلف من مجتمع إلى آخر. فالرغبة المحرّمة في بعض المجتمعات لا تكون موجهة إلى الأم بل إلى الأخت وهو ما يوجه العداوة وجهة أخرى غير الوجهة التي تحدّث عنها فرويد: (Sigmund freud 1856- 1939) في إطار ما أسماه "عقدة أوديب"، وقدّم مقابل ذلك تفسيرا وظيفيا، توصّل من خلاله إلى أنّ تحريم العلاقات الجنسيّة المكونة للعائلة النوويّة (الأم والأبناء والأخوة والأخوات)، يمنع ما قد ينشأ من صراعات داخلية بسبب الغيرة والتنافس، وهذا ما يحفظ تماسك الأسرة ويمنع تفكك أواصرها».(ناصر ابراهيم،1985، ص96).

اكتملت النظرية الوظيفية عند "ماليونفسكي" في البحوث التي نشرت بعد مماته سنة 1942 في كتابه "نظرية علمية في الثّقافة" اعتبر فيه الثّقافة « ذلك الوجه من السلوك الإنساني الذي يتعلمه الأفراد وتتقاسمه الجماعات ناقلة إياه إلى أفراد آخرين وبما يحوي الأشياء المادية المرتبطة بتلك المجتمعات وأنشطتها (الخبرات، القوانين، الأنظمة، الأفكار، المعتقدات، الأعراف)، أي ما يكوّن الأجهزة المادية والثّقافية التي تساعد الإنسان على التأقلم مع محيطه»،(فهيم حسين، مرجع سابق، ص 30). نستنتج ممّا سبق أن دعاة هذا الاتجاه الوظيفي ينظرون إلى النظام الاجتماعي بوصفه مفهوما أساسيا في تحليل الثّقافة البدائية وتقسيمها إلى عناصر جزئية تيسّر الدراسة الوظيفية وفهم الطريقة التي تسير على أساسها الحياة الاجتماعية على نحو يؤمن تماسك المجتمع واستمراره. وما ينبغي التأكيد عليه ضمن هذه الرؤية أن ثقافة أي مجتمع إنما تنشأ وتتطور في إطار إشباع الحاجات (التغذية والإنجاب والأمان). ولقد تعرضت "الوظيفية" إلى انتقادات محدّدة على أساس

نظرتها الثبوتية، لأنّها لا تعطي أهمية للتغير التّاريخي، إضافة إلى أنّها تمتنع عن المقارنة، وتؤكّد تأكيدا مبالغا فيه على خصوصيّة كل مجتمع، وهو ما يمثل وجها مقابلا للاتجاه البنيوي.

3-**4 الاتجاه البنيوي:** تعود بدايات الأناسة إلى أواخر القرن التّاسع عشر، حيث اكتسب شيئا من الخصوصيّة، عندما برز اهتمامها بمجتمعات المغرب العربي مما دفع إلى تطويرات برزت في أعمال الروّاد على أساس نظري أعطى أهميّة خاصّة لمسائل الطبيعة والثّقافة البدائيّة، سواء تعلّقت بالمعتقدات أو الفنون أو بالعقليات أو بأشكال التنظيم الاجتماعي، فقد عرف عن "دوركهايم" أنّه أنجز بحوثا عديدة جمعت في كتابه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" الذي صدر سنة 1912 وركز اهتمامه على الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسانية وظائف نظمها الاجتماعية، وليس على تاريخ تطور هذه المجتمعات والسمات العامّة لثقافاتها.

تكمن أهمية هذه البحوث، في إرسائها لدعائم التحليل الأناسي "الدوركايمي" ذي الأساس الوظيفي الواضح، وقد ساعد ذلك على تطوير جملة من البحوث تولاها(مارسيل موس:1950-Marcel Mauss1872) الذي شملت اهتماماته الأناسيّة للظواهر الدينيّة، من دين وسحر وكذلك الظواهر القانونية، والاقتصاديّة، فيما يهم التبادل الخاصّ. ونشر مقالا حول "الصلاة" سنة 1909، ركّز فيه على ما تؤديه من وظيفة تعزيز المعتقد، والارتباط بالمقدّس. أما مقالته في التبادل سنة 1923، فقد بيّن فيها أنّ "العطايا والهبات" ضرورية ملزمة تسليما وتسلّما، بحيث تجسّد نوعا من الروح الاجتماعية الجماعيّة. وقد مكنته كل هذه البحوث من أن يقف على ما أسماه "كلّية الظاهرة الاجتماعية، التي تتجسّد في الجوانب القانونية والأسطورية والاقتصادية والذوقية، وهي تجسدات تحضر كلّها في عمليّة التبادل"(Mauss Marcel,1950)وقد جمعت كتابات "موس" في مؤلّف بعنوان "سوسيولوجا وأنثروبولوجا" قدّم له "كلود ليفي شتراوس" سنة 1950. لكن التطور المهم في الأناسة كان مرتبطا بجملة كتابات(لوسيان ليفي بريل: Lucian Levy Brule 1857-1939) الذي تمكن من تطوير منظور يعتمد على تعميق مقولة البدائية الواردة في مؤلفه "الذهنية البدائية La Mentalité primitive" الصادر سنة 1922، وأساس هذه النظرة هو أنّ هناك فارقا جوهريا يفصل بين الذهنيّة البدائية التي تعتمد الغيبيات (ما قبل منطقيّة لا تقبل التجربة ولا التناقض) الذهنيّة الحديثة التي تعتمد على العلم والمنطق. ولا يتجسّد ذلك في البناءات الذهنيّة فقط بل في الممارسات الاجتماعيّة التي ترتبط بالأساطير وتصورها للعالم.

إنّ أفكار "برول" قريبة من الاتجاه التطوري، وملخص اتجاهه،« أنّ العقليّة البدائية لا تتقدّم ولا تكتسب القوة المنطقيّة إلا عن طريق احتكاكها بالإنسان الأبيض، عن طريق التبشير أو الاستعمار، وهو شكل من أشكال التشويه الايديولوجي للعلوم الأنثروبولوجية»(تشايلد جوردن، 1966، ص101)، وقد عملت أفكاره على ايجاد تصور متكامل للبدائيّة ولكنّها منقطعة عن البحوث الميدانيّة التي يغلب عليها المنزع الفلسفي أكثر من المنزع العلمي بالمعنى الأناسي للكلمة.

ولكن النقد الأساسي الموجه للنظرية البدائية، وللاطلاقية الثّقافية، أتت من عالم الأناسة الفرنسي(كلود ليفي شتراوس: C- Levis –Strauss1908-2009) ففي مؤلفه"البُنى الأولية للقرابة: Les Structures élémentaires de la parenté " الصادر في طبعته الأولى سنة 1949، حاول أن يطبق التحليل البنيوي للّغة كما طوره (دي سوسير: 1913- 1857 De Saussure) معتبرا أن « بنية اللّغة وبنية التبادل، سواء كان تبادلا اقتصاديا أو تبادلا للنساء، بنيتان متشابهتان وتخضعان إلى لا وعي كامن في التصورات والممارسة أيضا». (Lévi- 1962 Strauss) إنّ قواعد الزيجات وقواعد الانتساب العائلي والسكني والميراث وغيرها يمكن تلخيصها في صيغة واحدة: استبعاد الزواج بالقريبات، بما يؤدي الى تحريم نساء محددات

ووجوب تبادلهنّ مع مجموعات أخرى، وهو ما يسميه بنية القرابة الأولية .أمّا البُنى غير الأولية فهي تبادلية أيضا، ولكنها تخضع لمؤشرات أخرى غير دمويّة وهي مؤثرات اقتصادية أو سياسية أو سكّانية. البُنى الأوّلية هي التي سمحت بحدوث ما يعتبره" شتراوس" تحول من الطبيعي الى الثّقافي، ولا يقتصر هذا التحول على ما أحدثته هذه البُنى، بل رافقه جملة من الظواهر، منها أشكال التنظيم الاجتماعية، والعلاقة بالطبيعية، مثل النار مثلا. ويبني "شتراوس" على ذلك تصور مهم جدّا هو التّالي: يقيمون من يسموا بالبدائيين، جملة من قواعد التفكير والتصورات تُتبني على تلك القواعد عند القبائل المسماة بدائية أو الباردة ، يمكن أن تكون من قبيل البدائية أو ما يسميه شتراوس نفسه (العقل المتوحش: Pensée sauvage)، « ولكن البنية التي ينبني عليها ذلك العقل، بنية مماثلة تماما للبنية التي يعتمد عليها العقل العقلاني» (Lévi- 1979,P49 Strauss,)، وهو ما يسميه " بالنّسبية الثّقافية ".

مثّل الاتجاه البنيوي إذن تطويرا هائلا للأناسة، حيث افتتحت بشكل جدي البحوث الميدانية، وبنت تحليلاتها على أساس نظرية متكاملة، كانت لها تطبيقات في الأناسة، والفلسفة والتحليل الأدبي، وعلم الدلالات ومثلت من جهة ثانية مدرسة متكاملة أسست لنوع من تجاوز العرقية الثّقافية، وأفرزت تأثيرا بينا في بناء تحليلات أناسية مثل تلك التي أنجزها(راديكليف براون: 1881 -1955 Radcliffe Brown) في الاتجاه البنيوي الوظيفي، فقد جاور بين أساسيات التحليل البنيوي وبعض المقولات الوظيفية. وبلغت هذه التطويرات أقصى درجة في تعميق التحليلات الأناسية الكلاسيكية، رغم اعتبار العديد من المؤرخين، أن البنيوية ثورة على الأناسة الكلاسيكية، والأهمّ من كل ذلك أنها تختتم مرحلة في تاريخ الأناسة، وتفصل بين مرحلتين، تتمثل الثانية منهما ما بعد البنيوية.

3-5 اتجاه الثّقافة والشّخصيّة: إنّ السّياق التّاريخي لنشأة مدرسة الثّقافة والشّخصيّة هو نفس سياق المدرسة الوظيفية، ولكنّ الفارق النظري بينهما هو أنّ الوظيفية ركّزت على المؤسّسة وما هو اجتماعي، في حين أنّ مدرسة الثّقافة والشّخصية ركّزت على ما هو ثقافي. إن الاتجاه العام لمدرسة الثّقافة والشّخصيّة هو تأكيد الطابع الثّقافي للأناسة، على أساس تجاوز الاتجاه التطوري من جهة والاتجاه الانتشاري من جهة أخرى وذلك بمراعاة النّسبية الثّقافية.

إنّ السمة النظريّة لهذا الاتجاه، هي اعتبار كلّ قبيلة أو شعب ثقافة خاصّة، ولكنّ المهمّة الأساسية للباحث في هذه المدرسة، تتمثل في التركيز على انسجام تلك الثّقافة مع حياة الناس، لأنها تُقولب حياتهم سلوكا وتصورات، وتنحت ملامح الشخصيّة، ولذلك زاوجت هذه المدرسة بين التحليل الأناسي والتحليل النفسي.

من الناحية المنهجية، ركّز هذا الاتجاه على اعتماد المعاينة بالمشاركة، والتركيز على جمع البيانات العينيّة والتسجيلات المكتوبة وحتى التسجيل الصوري، ومن أعلام هذه المدرسة (روث بنديكت:1847 -1948 Roth Benedict) التي لاحظت منذ بحوثها الأولى، اختلافا بين ثقافتين هنديتين متمايزتين، الأولى ثقافة "البيما" (Pima) والتي تتسم بالتجانس والاعتدال، والثّانية ثقافة "البوبيلو" التي تتميّز بالغلو والترف. وبنت على ذلك نظرية عرّفتها في كتابها " نماذج ثقافية "نشرته سنة 1934 طبقتها على قبائل هندية، فقسمتها إلى قبائل ذات ثقافة من النمط الأبولوني،(نسبة إلى إلاه الجمال عند الاغريق) وقبائل ذات النمط الدينوزوسي، نسبة إلى (إلاه النبيذ والكروم). في المجتمع الأوّل، تكون الشّخصية لطيفة ومتحفظة وغير استعراضية وقريبة من الانطواء. أمّا في المجتمع الثاني تكون الشّخصيّة عدوانية وانفعالية. ولكن هذه الأنماط موجودة أيضا في مجتمعات أخرى، وقد لاحظتها الكاتبة مثلا في المجتمع الياباني في كتابها "الأقحوان والحسام" الصادر سنة 1946، وقد بحثت في علاقة الثّقافة بالشّخصية اليابانية، وخلصت إلى أنّ "ثمة علاقات قائمة بين النموذج الثّقافي العام ومظاهر الشخصية، وهذا ما ينعكس لدى الأفراد في

تلك المجتمعات"(الغامري محمد حسن،1989، ص42)، وكان من نتائج ذلك ظهور مدرسة ثقافية نفسية من أعلامها (مارغريت ميد 1979 -1901 Margaret Mead) التي درست قبيلة" الساموا" (Somoa) في دراسة موسومة "بسن البلوغ في الساموا "سنة 1928، وبيّنت أنّ هذه القبيلة لا تعيش أزمة المراهقة، مركّزة على أنّ ما يميّز ثقافة ما، « هو المزاج الثقافي الّذي يميّز بين الثقافات» ،(وصفي عاطف، 1971، ص35)، وهو تميز يشبه التمييّز الذي بينته "بنديكت" مثلا، حول مجتمع "الأرابيش" (Arapech) بغينيا الجديدة، حيث يعيش النّاس على الزراعة والمرعى وينشئون أطفالهم نشأة لينة دون قسوة. ويغلب على هذا المجتمع الدّعة والهدوء وهو أقرب للنمط الأنثوي، هذا الطابع السلوكي السلمي، لا يمكن أن نجده مثلا بين قبائل (المندوجوم: Mandigumos) المحاربين، وذلك لأنّ ظروف بيئتهم الكليّة مختلفة كل الاختلاف،« فهم يعيشون على الصيد وحياتهم محفوفة بالأخطار، لذلك ينشأ أطفالهم على حب الصراع والمنافسة، وشخصياتهم عدوانية وتسلطيّة، مليئة بالتنافس وحب السيطرة. هذا النموذج الثّقافي يختلف عن نموذج قبائل" تشمبولي" (Tchambulie) المجاور، حيث يعيش الرّجال والنساء في حيّين منفصلين، وتقوم النساء بالنصيب الأكبر من النشاط الاجتماعي والاقتصادي، فيستأثرن بالسلطة ويفرضن سلطاتهن على الرجال»(الخشاب أحمد، 1970، ص215)، أمّا مجتمع "الشانبولي" فيه فروقات واضحة، إذ تتصف شخصيات الرّجال فيه بالوداعة واللّطف والعاطفة، في حين تتصف شخصية النساء بالحدّة والنشاط.

إنّ الاستنتاج الأساسي الّذي توصّلت إليه "ميد" هو أنّ هذه الشّخصيات تبنيها الثّقافة، بحيث نجد أنّ المميّزات النفسيّة للرجال والنساء ترتبط بنماذج ثقافية محدّدة، وهو ما طوره (أبرام كاردينار:1891-1981 Abraham Kardiner) في دراسة بعنوان "الفرد ومجتمعه" سنة 1939 التي استخدم فيها مفهوم الشخصية القاعديّة بمعنى أنّ الثّقافة هي كل متفرّد شامل وكلّ فرد فيها يكون تصوره لنفسه ولمجتمعه على مقاس الصورة التي يفترضها المجتمع بحيث يتكون قاسم مشترك بين الشخصيات الفرديّة عند كل جماعة اجتماعية معيّنة هذا القاسم يسمّى شخصيّة قاعديّة، وهي مجموع الخصائص والسّمات النفسيّة المشتركة بين أفراد ثقافة واحدة، وهذه الخصائص تميزهم عن غيرهم. وهي نتاج شبكة من العوامل الاقتصادية والاجتماعيّة تتبلور من خلال علاقة الأفراد بمحيطهم بمختلف أبعادهم.

رابعا- فروع الأنثروبولوجيا:

إنّ شمولية اصطلاح الأنثروبولوجيا وترامي أطرافه، وتعدد حقوله وتنوع مجالاته وتشابك فروعه وتقاطعها، (رغم اختلاف الرّهانات التي تتحدد وفق الأرضية المعرفية لبلورة المفاهيم)، تجعل من محاولة ضبط الخطوط الكبرى التي تحدّد الفروع الأساسية للأنثروبولوجيا العامّة أمرا اشكاليا إلى حدّ ما. ونحن سنعتمد قراءة ترى في ستينات القرن الماضي وسبعيناته، بداية تبلور مبادئ الأنثروبولوجيا وأهدافها وظهور محاولات جادة، ذات أسس نظرية وأدوات منهجية واضحة، ثمّ انبثاق مبحثِ أكاديميِ ساهم في تحقيق الاستقلالية المعرفية، ولقد وضعت فروعِ لهذا الحقل، من أجل تحقيق علمية هذا الاختصاص الوليد. فظهرت نتيجة لذلك تصنيفات متعدّدة، خضع أغلبها إلى المرجعية الثّقافية والأطر المعرفية. وسنعتمد تقسيما « يرى في الأثتربولوجيا علم دراسة الإنسان طبيعيا، واجتماعيا وحضاريا (ثقافيا)» (سليم شاكر، 1981، ص56)، هذا التعريف قد يحسم لنا تشعّب أقسام الأنثروبولوجيا وتعدّد فروعها، التي يمكن تحديدها في ثلاثة فروع رئيسيّة: الطبيعية(العضويّة)والثّقافيّة والاجتماعية. وتقسيمنا هذا، مردّه إلى الخاصيّة الأساسية للأنثروبولوجيا، بماهي نظرة كلّية للإنسان، وبذلك تصبح الأنثروبولوجيا منهجا، يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان في جوانبه المتعدّدة. هذا هو في الأصل المبرّر المنهجي الذي اخترنا.

4-1 الأنثروبولوجيا الطبيعية أو العضوية: في الأصل، وكما تبين التسمية ارتبط هذا الاختصاص بالعلوم الطبيعية، ولكنه امتدّ ليشمل العلوم الاجتماعية، ثمّ أصبحت اختصاصا رئيسيا في الأنثروبولوجيا. وتعرف بأنها، العلم الذي يبحث في السمات العضوية للإنسان، وما قد يطرأ عليها من تغيرات بفعل تأثيرات البيئة، والمكونات الوراثية. كما يهتم بالسلالات الإنسانية من جهة البحث في الأنواع البشرية ومميزاتها. وحتى نستطيع فهم الإنسان باعتباره نتاج لعملية عضوية، علينا فهم تطوّر أشكال الحياة، وطبيعتها، وكذلك خصائص الإنسان القديم والإنسان الحديث«وقد استطاع هذا الحقل العلمي – من هذه المحددات – أن يجيب عن العديد من التساؤلات، التي كانت موضع اهتمام الإنسان وتفكيره منذ القديم وحتى العصر الحاضر».(رياض محمّد، 1974، ص12)، وتنقسم الأنثروبولوجيا العضوية بدورها إلى فرعين رئيسيين بحسب طبيعة الدراسة:

4-2 فرع الحفريات البشرية: يتناول بالبحث الجنس البشري، بما هو نتاج لسلسلة معقدة من التطور، ودراسة التنوع البيولوجي عند الإنسان ومدى دلالاته، بالاعتماد على ما يقع اكتشافه من الحفريات والآثار والمعمار القديم، وذلك بغية الاحاطة العلمية بالإنسان وتحليل تلك المكتشفات ومعرفة دواعي التغيرات الممكنة في السّمات الفيزيقية للإنسان وتأثير العوامل الايكولوجية على البنية العضوية للإنسان، وعلى وضعيته الديموغرافية، إنّ الهدف الرئيسي لهذا الفرع البحثي هو محاولة الاجابة عن أسئلة من قبيل:« كيف تغير الإنسان وتطورت الحياة على الأرض وصولا إلى شكلها الحالي؟، (ناصر ابراهيم، 1985، ص32)، وقد أجابت العديد من الحفريات عن أسئلة هذا الحقل المعرفي، لعل أهمّها أن إنسان العصور الغابرة كان يعيش على الأرض منذ ما يناهز نصف مليون سنة، ويختلف عن إنسان هذا العصر، من حيث كبر الحجم، وقوة البنية، بالإضافة الى بروز فكيه، وغور عينيه وعرض جبهته.

4-3 فرع الأجناس البشرية: يدرس هذا الفرع العلمي الملامح الأساسية، والفروقات الجسمية الممكنة بين إنسان القرون الماضية وإنسان اليوم، ومحاولة رصد الأسباب المحتملة لهذه الفروقات. كما تجاوزت تلك المقولات الأنثروبولوجية العرقية السائدة التي تصنف الأجناس البشرية على أساس لون الجلد وشكل الشّعر لتؤسس لفروقات أوثق ارتباطا بميدان البحث، « فقد بدأت تدرس الفوارق بين الفئات المختلفة على أساس سرعة النمو، والسن، والنضوج الجنسي، ومدى المناعة ضد الأمراض» (لينتون رالف، 1967، ص18- 19)، وبناء على ذلك، فإن فرع الأجناس البشرية يدرس التغيرات البيولوجية التي تحصل بين مجموعات إنسانية في مناطق جغرافية مختلفة، على أساس تشريحي ووراثي، واعتمادا على المقارنة مع الهياكل العظمية للإنسان القديم. ولقد ساعد ذلك على بناء نماذج وإنشاء تصنيفات بشرية على أسس علمية. واستعانت بشبكة معقدة من العلوم، مثل علم التشريح والجغرافيا الحيوية، وعلم الجيولوجيا، حتى تتحقق أهداف الأنثربولولوجيا العضوية في دراسة أصل الإنسان دراسة تاريخية، تعتمد منهجية علمية، حتى عداها البعض بعلم الاحياء الإنسانية.

واستنادا على ما تقدم، نخلص إلى أنّ الأنثروبولوجيا العضوية (الطبيعية) تتناول بالدراسة « جملة الخصائص والملامح العامّة للبنية الفيزيقية للإنسان»(اسماعيل محمد قباري، 1973، ص42)، بمعنى أنها المسلك العلمي الذي يدرس التّاريخ العضوي للإنسان الطبيعي، وملامحه البنائية الحالية والمنقرضة، وهو ما يرسم لنا في النهاية، المراحل التطورية للجنس البشري. ولكن على الرغم من الصفات الجسمية المشتركة بين البشر، إلاّ أنّ ثمّة اختلافات في خصائصها وتكوينها، تتأثّر إلى حدّ ما بالبنية النفسيّة والسلوكية للإنسان، واعتمادا على الاختلافات الشكليّة والسلوكيّة، وقع تقسيم البشر إلى ثلاثة أجناس رئيسيّة.

ورغم ما تمثّله تلك التقسيمات من عوامل أساسية في التمييز بين الأفراد والمجتمعات، فإنّ ذلك لم يمنع علماء الأنثروبولوجيا اليوم من اعتماد العوامل الاجتماعية والتربوية، في تفسير

الاختلافات والفروقات بين الأفراد والشعوب، ويضرب في العمق المقولة التي تدعي أنّ تقدّم أي شعب هو دليل على ذكائه، وقدراته الفطريّة.« ولذلك يولون أهميّة قصوى إلى عوامل البيئة الطبيعيّة والاجتماعيّة» (لينتون رالف، 1967، ص59)، في تكوين شخصيّة الإنسان وما العوامل الوراثية إلا مساعدة فقط.

4-4 الأنثروبولوجيا الثّقافية: يمكن القول إنّ المشروعية العلمية لهذا الاختصاص الوليد، ظهرت في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر، نتيجة لأبحاث العالم الأنثروبولوجي الانكليزي (إدوارد تايلور: 1832-1917 Edward Taylor) الذي ابتكر أول تعريف للثقافة، وعدّه مفهوما أنثروبولوجيا في مؤلفه الشهير "الثقافة البدائية: "Culture Primitive " وقد انطلق فيه من وجهة نظر تطورية تقول أنّ « النّقافة تطورت من الشكل غير المعقد، إلى الشكل المعقد نسبيا»،(أبو زيد أحمد، 1978، ص38-40)، وهي نظرة تتفق مع "لويس مورقان"، فالاهتمام الرئيسي لهذا المجال البحثي، هو محاولة الاجابة عن سؤال مركزي في الأدبيات الأنثروبولوجية وهو: أين تنتهي الطبيعة وأين تبدأ الثّقافة، وماهي العلاقة بينهما؟.

وبشكل عام يمكن تعريف الأنثروبولوجيا الثّقافية بأنها فرع بحثي يدرس الإنسان في ثقافته داخل مجتمعه، وما يبتدعه من أدوات وأجهزة مادية كانت، أو روحية ماضيا أو حاضرا بغية فهم دلالاتها، وهي تعتبر أن كل فرد له ثقافة ما، ويمارس سلوكيات تتوافق مع سلوكيات الجماعة الاجتماعية المنضوية في محيطها، كما تبحث في الخصائص المتشابهة والعلاقة بين الثّقافات، وعلى هذا الأساس، فإن الأنثروبولوجيا الثّقافية تهتم بدراسة أصول الثّقافات الإنسانية في تغيرها وتمازجها، وصفا وتحليلا وتفسيرا لتنظر في وتيرة تطورها ونموها في مجتمع محدّد.

وعلى الرّغم من تنوع الظاهرة الثقافيّة وتعقّدها واختلافها وتعدّد أبعادها وتنوع تجاربها، (لأنّها تتبلور في الزمن وتصنع تاريخ المجتمعات وترسم موقعا للإنسان في محيطه)، فقد اتفق الأنثروبولوجيون على تقسيم الأنثروبولوجيا الثّقافية إلى أربعة أقسام لعلّ من أهمّها:

1-4-4 علم اللّغويات واللّسانيات: هو العلم الّذي يبحث في تركيب اللّغات الإنسانية المنقرضة والحيّة المستعملة كالعربية والفرنسية والإنجليزية عامية أو فصحى، والاهتمام الرئيسي ينصبّ على العلامات اللّغوية ونظامها الداخلي وعلاقها بالمجتمع والواقع. يقول " كلود ليفي شتراوس": « حين نقول الإنسان، فإنّنا نعني اللّغة، وحين نقول اللّغة... فإنّنا نقصد المجتمع ...» (شتراوس ليفي كلود، 2003)، فاللّغة إضافة لكونها طريقة للتخاطب، والتواصل بين أفراد مجتمع ما، وبين الثقافات، فهي رموز صوتية، وأشكال لغوية، متفق عليها وتكتسب بالتعلّم... وهي وعاء لنقل التراث الثّقافي. وهذا ما دفع "شتراوس" إلى توظيف مناهج اللّغويات وأساليبها الحديثة في تحليله للعناصر الثّقافية. وهذا ما جعله يعطي الكلمة (الدال: Le signifiant) أهمية أكثر مما أعطاه للمعنى (المدلول:Le signifié) «ولا سيما أنّ الدال الواحد (الكلمة الواحدة) قد يكون له مدلولان مختلفان لشخصين مختلفين نظرا لاختلاف تجاربهما بل أنّ الدال الواحد قد تكون له مدلولات مختلفة بالنّسبة لذات الشخص وفي أمكنة وأزمنة مختلفة». (أبو زيد حامد، 1978، ص 86). يهتم علماء أنثروبولوجيا اللّغة بدراسة الاختلافات في اللّغة الواحدة، لاكتشاف النماذج الفكرية المتنوعة في الثّقافات ودراستها في سياقها الاجتماعي لتبيّن كيف يعكس الكلام التمايزات الاجتماعية القائمة. ولذلك نراهم « يتناولون مبحث اللّغة في سياقها الاجتماعي والثّقافي، وفي صيرورتها المكانيّة والزمنيّة، بهدف البحث عن الأسس العامّة للغة وربطها بالتمثّلات الساكنة في الدماغ الإنساني». (وصفي عاطف، 1971، ص 10).

2-4-4 علم أصول اللّغات: يهدف هذا المبحث إلى تحديد أصول اللّغات الإنسانية، ويختص بالجانب التاريخي المقارن، وذلك بدراسة العلاقات الخارجية بين اللّغات. كما يهتم بالبحث في مورفولوجية اللّغة على اعتبار أنّ اللّغة ليست مجرد أداة للتواصل فحسب، وإنما هي كذلك وسيلة

لتصنيف الخبرات، بمعنى أنّ الإنسان على الرغم من استخدامه لغة واحدة، يقوم بطريقة غير واعية بانتقاء المعاني التي يستخدمها، وذلك لعدم قدرته الاستجابة الدقيقة لمنبهات محيطه الخارجي.

4-4-3 علم الآثار القديمة: يبحث هذا الفرع من الأنثروبولوجية الثّقافية، في الأصول الأولى للثقافات الإنسانية وخاصّة منها المنقرضة، ويعنى بتحليل آثارها ومخلفاتها بغية كشف التسلسل التّاريخي للأجناس البشرية. ويعتمد باحث الآثار على الإرث الثقافي للإنسان القديم، لدراسته، ومحاولة تفسير التغيّرات والتطورات التي طرأت عليه، وإدراك عوامل ازدهار حضارة، وانهيار أخرى، قصد بناء نماذج عن الحياة الاجتماعية التي عاشتها الثّقافات ما قبل التّاريخ، والملاحظ أنّ علماء الأثار- الأنثروبولوجيون- يستفيدون من أبحاث علماء الجيولوجيا والجغرافيا الحيوية والمناخ والأنثروبولوجيا العضوية (الطبيعية)، للتحقق من هوية الآثار المكتشفة ومن تاريخ وجودها، وبوجه عام يمكن القول إن علماء الآثار القديمة، يحاولون البحث في تلك المرحلة من ماضي الثقافات القديمة التي لم تعرف الكتابة، والمسمّاة بالبدائيّة أو المستكشفة وما رافقها من تغيرات ثقافية.

4-4-4 علم الثّقافات المقارن (الإتنولوجيا): تعتبر الإتنولوجيا من أقرب الفروع البحثية إلى طبيعة الأنثروبولوجيا وذلك على أساس تقاطعهما في ما يهمّ دراسة الشعوب، وتقسيمها على أساس خصائصها وميزاتها الثقافية والاقتصاديّة، بما في ذلك من عادات ومعتقدات ومنتجات مادّية ومعنويّة، وعلى هذا الأساس، « يمكن اعتبار الإتنولوجيا فرعا من الأنثروبولوجيا العامّة فهي تبحث في نشأة السلالات البشريّة، وأصولها، كما تدرس خصائص الشّعوب اللّغويّة والثّقافية»(اسماعيل محمد قباري، 1973، ص42)، لذلك يعرف كلوكهون الإتنولوجيا بأنّها "دراسة الثّقافة على أسس مقارنة، باعتماد نظريات وقواعد ثابتة، قصد استخلاص تعميمات نظرية ومنهجيّة عن أصل الثّقافات وتطورها، وأوجه الاختلاف والإتلاف في ما بينها، ودراسة أصول هذه الثقافات والمجتمعات الإنسانيّة وتاريخها ورصد وتيرة تطورها ونموها وأدائها لوظائفها وتحليل انتشارها تحليلا تاريخيا"(كلوكهون كلايد، 1964، ص31).

ولا تقتصر المباحث الإتنولوجية على المجتمعات البدائيّة فقط، بل تهتمّ بطرائق حياة المجتمعات التي تتوفر لدينا عنها معطيات ومعلومات، باعتماد أدوات تحليليّة، لعلّ من أهمّها مصطلح الثّقافة الذي يعدّ من المفاهيم المركزية التي يتعامل معها الباحث الإتنولوجي. لهذا المفهوم "يمكن دراسة بعض العادات والنظم والقيم والتقاليد مثل: المجتمعات الأمومية أو الأبوية النسب وطرائق الزواج، وكيفيّة اشباع الحاجات"(حمدان محمد زايد، 1998، ص103)، ويمكن أن نجمل أهداف عالم الإتنولوجيا في أنّه يحاول أن « يفهم كيف تعمل المجتمعات والثّقافات وكيف تتغير ولماذا؟ للوصول إلى جملة من التعميمات أو"القوانين" لتساعد في التنبؤ بسير الأحداث لغاية التحكّم فيها في النهاية»(لينتون رالف، 1967، ص 27).

لقد شكلت الإتنولوجيا ما يمكن الإشارة إليه بالأنثروبولوجيا المعاصرة، ولم تعد تقتصر دراستها على المجتمعات صغيرة الحجم أو الثّقافات غير الغربية، وإنّما توسعت لتشمل الثّقافات

والمجتمعات على اختلاف حجمها وموقعها وأدّى هذا التنوع إلى تقاطع الدّراسات، وتضاربها أحيانا، علاوة على التمسّك المفرط بالنواحي المنهجية، وكيفيّة دراسة الثقافات الإنسانيّة أكثر من ابتداعها إلى نظريات علميّة.

5-4 الأنثروبولوجيا الاجتماعية: نشير بداية إلى أنّ المدرسة الأنثربولوجية الأمريكية، تعتبر الأنثربولوجيا الاجتماعية فرعا من الأنثروبولوجيا الثّقافية، وحجتها في ذلك أنها تبحث في العلاقات الاجتماعية التي هي في الأصل عنصر من عناصر الثّقافة، وهذا ما عبّر عنه صراحة "إيفا نز بريتشارد" أحد المنظرين الأوائل للأنثروبولوجيا الاجتماعية بالقول إنها العلم « الذي يدرس السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية مثل العائلة ونسق القرابة والتنظيم السّياسي والإجراءات القانونية والعبادات الدينية وغيرها، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم، سواء في المجتمعات المعاصرة أو المجتمعات التاريخية، دون تحديد للحظة التاريخية أو الموقع الجغرافي. كما تدرس العلائق الممكنة بين هذه المؤسّسات في المجتمعات المعاصرة ونظيراتها التاريخية التي لنا عنها معطيات كافية، يسمح معها القيام بدراسات»(برتشارد إيفا نز ادوارد، 1975، ص13)، وتُولي هذه المدرسة اهتماما ملحوظا للبناء الاجتماعي، وما أنتجه الإنسان من نظم مؤسّساتية وعلاقات، بغية فهم دلالاتها، واستقراء معانيها. وهذا يمكّن من القيام بأبحاث ميدانية، وإجراء مقارنات لكثير من النّظم الاجتماعية، تؤدّي إلى إنشاء نماذج نظرية، لتحليل وظائف الأبنية الاجتماعية وتفسيرها وفهمها في مستوياتها الاقتصادية والسّياسية والدينية، ماضيا وحاضرا. وأدى هذا إلى ولادة تخصصات فرعية من رحم الأنثروبولوجية الاجتماعية، مثل أنثروبولوجيا القرابة والأسرة وأنثروبولوجيا الدين وأنثروبولوجيا الاقتصاد وأنثربولوجيا النظم السّياسية، وغيرها من التخصّصات التي حافظت على الاطار العام للجهاز المفاهيمي والتمشي المنهجي للأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولكن العودة الى التّاريخ تبين لنا أنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية. عرفت مراحل مهدت لولادة حقل معرفي استند إلى مرجعيات علمية ومدارس فلسفية متباينة ساهمت في بلورة الارهاصات الأولى لخطاب أنثروبولوجي اجتماعي يعتمد تنوع المناهج واختلاف المقاربات نظرا لاكتساحها فضاء الإنسان ومجال نشاطه.

تعود بدايات الأنثروبولوجيا الاجتماعية الى سنة 1980، حين تشكل المصطلح مع "جيمس فرايز". ولقد أراده مبحثا يدرس البُنى الاجتماعية. ولكن قبل هذا التّاريخ متحت الأنثروبولوجيا الاجتماعية من الإرث الفرنسي كما هو لدى سان سيمون(saint Simon 1760-1825) ، و(أقست كونت:Auguste Comte 1789-1857) في سعيهما لإيجاد علم يدرس العلاقات والوقائع الاجتماعية، أوفي "روح القوانين" (مونتسكيو: Montesquieu 1689- 1755) حول الأبنية الاجتماعية. فقد بين فيها أن المجتمع وما يحيط به، يتكون من مجموعة نظم مترابطة ارتباطا وظيفيا، متناسقا، تساعد على فهم القوانين العامّة لدى شعب من الشّعوب، « ولا يكون ذلك إلا إذا درسنا العلاقات التي تتحكم في تلك النظم، البيئية والاقتصادية والسكّان والمعتقدات والنسق القيمي السائد»(الجباوي علي، 1982، ص101)، في المقابل، كانت التأثيرات

الأنجلوساكسونية أكثر وضوحا وطموحا، حيث برزت بوادر دراسات مهدت لقيام الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ومن أهمّها محاولات (دافيد هيوم :David Hume1711- 1776) و(أدم سميث، Adam Smith1723-1790)، اللّذين نظرا الى المجتمع وأنساقه، باعتباره معطى طبيعيا، لا متشكلا إنسانيا، وما يفرضه ذلك من تطبيق لمناهج العلوم الطبيعية، التي تقوم على التجريب والاستقراء، والابتعاد عن مناهج الفلسفة، وقد مهد ذلك إلى الاهتمام بالمجتمعات البدائية، وبروز أطروحات فكرية تفاضلية تعلي من شأن المجتمع والإنسان الأوروبيين. ومقابل ذلك تمّ الحط من قيمة الإنسان البدائي على أساس اختلاف سلوكه وبنيته الاجتماعية عن الإنسان الأوروبي المتحضّر. المثال على ذلك الهنود الحمر في أمريكا. تتمثل قيمة هذه التوجهات في كونها مكنت من بداية الاهتمام بالنظم الاجتماعية الذي سيكون مقوّما أساسيا لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

مثّل تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية لحظة فارقة في تاريخ الاختصاص ومرحلة انتقالية ما بين الأنثروبولوجيا الكلاسيكية، (التي كانت تعتمد على التخمينات والتفسيرات النظرية) وبين نظيرتها الحديثة التي بدأت مع النصف الثّاني من القرن العشرين واعتمدت على الدّراسات الميدانية والدّراسات التحليلية التي تُعنى بالجوانب الاجتماعية والثّقافية المكونة للفكر الأنثروبولوجي، وقد أدى ذلك بالتّالي إلى ظهور مبحث أكاديمي له أصوله وقواعده العلمية. وتعزّز تقدمها وتوضّحت أهدافها خاصّة في الجامعات الأنقلوساكسونية نظرا لطبيعة المرجعيات الثّقافية السائدة هناك.

إنّ الرّهان الأصيل للأنثروبولوجيا الاجتماعية هو التوصل إلى بناء نماذج (Model) للأبنية الاجتماعية على غرار الواقع الاجتماعي، ولكنه ليس مطابقا له. وهدفه المساعدة على التصنيف المنهجي للأنساق الاجتماعية وتفهّم ملامح أنساق معينة والوصول إلى تعميمات نستطيع من خلالها تفسير طبيعة المجتمعات البشرية وفهمها. وتتمثل هذه المفردات في العشيرة والقبيلة والدولة والمجتمع. وهي من أهم النماذج الأساسية للبنية الاجتماعية العامّة التي توصل إليها "رادكليف براون"، وبواسطتها حدّد الأشكال الرئيسية للأسرة، وخطا خطوة مهمة نحو الوصول الى نماذج عامّة وقوانين اجتماعية تفسر التنوّع في البُنى الاجتماعية المختلفة على غرار ما هو معمول به في العلوم المسماة صحيحة. نظيف إلى ذلك الجوانب الوصفية المعتادة. إنّ الأنثروبولوجيا الاجتماعية تسعى إلى محاولة تحديد مظاهر الترابط بين النظم الاجتماعية من جهة، ورصد التفاعل المتبادل فيما بينها من جهة ثانية.

لقد استطاعت العلوم الأنثروبولوجية كغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية المجاورة، التطرق لمفهوم ما الإنسان؟ غير أنّها بقيت قاصرة عن الإجابة عنه في كليته باعتبار أنّ الإنسان كائنا نوعيا في بنيته، والثقافات مختلفة عاداتا وتقاليدا ونُظما.

خاتـــــمة:

واستناداً إلى ما تقدّم يمكن القول إنّ الرحالة العرب أسهموا بفاعلية كبرى في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تُدرج في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولا سيّما التنوّع الثقافي (الحضاري) بين الشّعوب سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى. ولكن على الرغم من اعتبارها مصادر للمادة الأثنوجرافية التي درست أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وخلال فترة زمنية محدّدة ولا سيّما العادات والقيم وأنماط الحياة، فإنّ الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر القرن التّاسع عشر كعلم جديد معترف به لم تكن ذات صلة تذكر بهذه الدراسات. ومن جهتنا يمكن القول أنّ ما بلغته الأنثروبولوجيا اليوم هو نتيجة مسار بحثي وتراث مشترك من الوصفيات بين ثقافات متعدّدة مكّن من تطوير هذا التراث الاثنوجرافي العفوي إلى خطاب علمي متعدّد الحلقات ومختلف المحطات. وكان المنطلق عن محاولات

التأسيس النظري، وتبلور المصطلح المترامي الأطراف والمتعدّد الحقول والمتنوع المجالات، وتشابكها وتقاطعها، واعتمادا على مبدأ التخصصّ، ركّزت الأنثروبولوجيا بحوثها على مجالات محددة، وهو ما جعل بعض فروعها تكتفي أساسا بمجال اختصاصها. فقد درس الإنسان من زاوية ذرية وتجزيئية. وهذا يطرح جملة من الأسئلة، من قبيل، إلى أي حدّ استطاعت العلوم الأنثروبولوجيّة أن تجيب عن سؤال ما الطبيعة؟ ما الثّقافة؟ في مناخ استعماري تفاضلي، يُقر بالمركزية الثّقافية.

قائمة المراجع:

1. ابن بطوطة محمد بن عبد الله(1968)، رحلة ابن بطوطة: تحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد المنعم العريان، دار احياء العلوم، بيروت.
2. ابن جبير محمد بن أحمد الأندلسي(2008)، تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، الطبعة الأولى، تحقيق علي كنعان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الإمارات.
3. ابن خلدون عبد الرحمان بن محمد (د. ت)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
4. ابن فضلان أحمد ابن العباس(1959)، رسالة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، مطبوعات المجمع العلمي العربي، دمشق.
5. الإدريسي محمد بن عبد الله(2002)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء الخامس من الإقليم الخامس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
6. البكري أبو عبيد عبد الله بن محمد(1992)، المسالك والممالك، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
7. التيجاني أبو محمد عبد الله بن محمد(2005)، رحلة التيجاني، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، تونس.
8. المسعودي أبو الحسن بن علي(2005)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الأولى، مراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.
9. المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد(1906)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة خياط، بيروت، لبنان.
10. أبو زيد أحمد(1978)، محاضرات في الأنثروبولوجيا الثّقافيّة، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
11. برتشارد إيفا نز ادوارد(1975)،الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة أحمد أبوزيد، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، الاسكندرية.
12. تشايلد جوردن(1966)،التطور الاجتماعي، ترجمة لطفي فطيم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة.
13. الجباوي علي(1996)،الأنثروبولوجيا،علم الإنسانة، جامعة دمشق.
14. الخشاب أحمد(1970)، دراسات أنثروبولوجيّة، دار المعارف، القاهرة.
15. رياض محمّد(1974)، الإنسان: دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، بيروت.
16. سليم شاكر(1981)، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، الكويت.
17. الغامري محمد حسن(1989)، المدخل الثّقافي في دراسة الشّخصيّة، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.
18. فرايزر جيمس(1971)، الغصن الذهبي، ترجمة أحمد أبو زيد وآخرون، الهيئة المصريّة للتأليف والنّشر، القاهرة.
19. كلوكهون كلايد (1964)، الإنسان في المرآة: علاقة الانثروبولوجي بالحياة المعاصرة، ترجمة شاكر مصطفى سليم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد.
20. ليفي شتراوس كلود(2003)، مداريات حزينة، الطبعة الأولى، ترجمة محمد صبح، دار كنعان للدّراسات والنّشر، دمشق.
21. لينتون رالف(1967)،الأنثروبولوجيا وأزمة العلم الحديث، ترجمة عبد الملك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت.

22.محمد قباري اسماعيل(1973)،الأنثروبولوجيا العامّة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية.
23.ناصر ابراهيم(1985)،الأنثروبولوجيا الثقافية: علم الانسان الثّقافي، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
24.وصفي عاطف (1971)،الأنثروبولوجيا الثّقافية، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان.
25.فهيم حسين(1986)، قصّة الأنثروبولوجيا: فصول في تاريخ الانسان، سلسلة عالم المعرفة، العدد 198، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت.
26.Poirier Jean (1974) , L'histoire de l'ethnologie, coll. « que sais-je ?, PUF, Paris
27.Richard Leakey et Roger Lewin (1985), Les origines de l'homme, Flammarion , Paris
28.Mauss Marcel (1950), Sociologie et anthropologie, Paris, PU.
29.Lévi-Strauss Claude (1979), Anthropologie structurale, Plon, Paris.
30.Lévi-Strauss Claude (1962), Les structures élémentaires de la parenté, Plon, Paris
31.What is Anthropology? www.aaanet.org